التنمية البشرية في فكر الإمام الباقر عليه السلام
التنمية السياسية والاجتماعية أنموذجاً

المدرس
عتاب بسيم السوداني
جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية
hydrjabr@gmail.com

الحوار والوعظ أسلوبين قديمين مألوفين لم يخل منهما قط تراث تربوي خلال المسيرة البشرية وهما من أفضل أساليب التعلم وأكثرها شيوعا. فالناس يتدولون الحوار يومياً، والمشرع الاسلامي أمر بالحوار الهادف وجعل منه وسيلة ناجحة لإثبات منطق الحق الذي يدعوا إليه، أو لتعديل سلوك الباطل، لتحقيق غاياته التربوية والعقائدية والإنسانية، ولم يكن أسلوب الوعظ والوصايا بعيداً عن الدائرة الإسلامية فالوعظ والوصايا ذات الأبعاد الشاملة التي بدأها رسول الله صلى الله عليه وآله في وعظه ووصاياه السياسية والثقافية قد استمر عليها الأئمة عليهم السلام وأصبحتْ بعد ذلك منهجاً متميزاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام ومن نهج نهجهم وكانتْ مواعظهم ووصاياهم تشتمل على مختلف المعالم والثقافية، وقد استعمل الإمام الباقر عليه السلام هذين الاسلوبين مع الناس عامة وطلبته بصورة خاصة، ومن هنا جاءت فكرت بحثي والمتضمنة مبحثين: تناولت في الاول أسلوب الحوار وتطبيقاته في فكر الامام الباقر عليه السلام تناولت في الثاني أسلوب الوعظ وتطبيقاته في فكر الإمام الباقر عليه السلام.

التنمية البشرية هي أحد جوانب التنمية الواسعة وكمفهوم بدأ وتطور من عقد إلى آخر، وفي كل فترة كان يستخدم أكثر من تعبير للدلالة على هذا المفهوم فلقد استخدم مثلاً في البداية تعبير تمنية العنصر البشري أو تنمية الرأسمال البشري أو تنمية الموارد البشرية أو التنمية الاجتماعية.....الخ إلى أن استقر أخيراً على تسمية (التنمية البشرية) ولو تعمقنا أكثر في فهمنا لهذا المفهوم لوجدناه يجمع ما بين الإنتاج والتوزيع للسلع، مع توسيع القدرات الإنسانية ويحلل كل القضايا والأمور في المجتمع من أمور النمو الاقتصادي إلى الإنتاجية إلى علاقات الإنتاج والاستهلاك، والادخار، والاستثمار إلى التجارة والثقافة، إلى التشغيل، إلى الحرية

السياسية، إلى القيم الأخلاقية فضلا عن المضمون الاجتماعي من صحة وتعليم وغيرها من أمور، وذلك كله من منظور البشر كمنتجين ومستفيدين من التنمية وبكونهم أداة التنمية وغايتها، ويمكن تطبيق المفهوم على الدول المتقدمة والنامية على حد سواء. فهي العملية التي تستهدف الإنسان وتعمل جاهدة على وضع كل ما يفيده، ويخدمه في متناول يده خاصة أن يحيا حياة طويلة ويكتسب المعرفة، ويتمتع بمستوى معيشة كريمة، فضلا عن تطوير جميع طاقاته وإمكانياته لهذا الغرض لأنه أساس الحركة التنموية في أي مجتمع.

والتنمية من منظور إسلامي نجدها تنمية اقتصادية، اجتماعية، بشرية وروحية وثقافية غايتها تكريم الإنسان. وباعتبار أهل البيت عليهم السلام عامة والإمام محمد الباقر عليه السلام خاصة الممثلين الحقيقيين لشريعة الإسلام جاء بحثنا هذا كإسهامه متواضعة في البحث عن مضمون هذا المفهوم في فكر الإمام الباقر عليه السلام .

وقد قسمنا البحث إلى ثلاثة مباحث تناولنا في الأول:

الأول: مفهوم التنمية البشرية، تطورها التاريخي، عناصرها، مقاييسها، أهدافها. وتناولنا في

الثاني: التنمية السياسية في فكر الإمام الباقر عليه السلام .

الثالث: التنمية الاجتماعية في فكر الإمام الباقر عليه السلام .

المبحث الأول

التنمية

التنمية مصطلح قديم، جديد ويعد من أكثر المصطلحات تداولا، ويمكن أن يمتد ليشمل جوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وغيرها من المجالات الأخرى كافة. مع ذلك فإنه كمصطلح صعب التحديد، والصعوبة تعود إلى تنوع الجوانب المتصلة به، وكذلك لاختلاطه بمصطلحات أخرى، ولعل التداخل فيما بين مصطلحي النمو والتنمية والفرق بينهما يعد واحدا من الإشكالات المهمة (وإن كان هناك بعض المفكرين يستعملون المفهومين استعمالاً واحداً أي لا يفرقون بينهما، إلا إن بعضهم الآخر يحرص على التمييز الواضح والمحدد بينهما ولعل الفارق بينهما لدى هؤلاء هو التنمية تعني انبثاق حالة عقلية، ونفسية

واجتماعية من شأنها أن تجعل النمو ممكنا[١].

والتنمية هي عملية حضارية شاملة لمختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية للإنسان وكرامته، وكما إنها بناء للإنسان وتحرير له، وتطوير لكفاءاته، وإطلاق لقدراته للعمل البناء، كما هي اكتشاف لموارد المجتمع، وتنميتها والاستخدام الأمثل لها من أجل بناء الطاقة الإنتاجية القادرة على العطاء المستمر[٢].

التنمية البشرية:-

والتنمية البشرية هي أحد جوانب التنمية الواسعة وكمفهوم بدأ وتطور من عقد إلى آخر، وفي كل فترة كان يستخدم أكثر من تعبير للدلالة على هذا المفهوم، (فلقد استخدم في البداية تعبير،(تنمية العنصر البشري) أو (تنمية الرأسمال البشري) أو (تنمية الموارد البشرية) أو (التنمية الاجتماعية)..... الخ إلى أن استقر الرأي حالياً على أسم التنمية البشرية [٣].

وهي توفير وإتاحة الفرص المجتمعية، والبيئية لنمو الطاقات الجسمانية، والعقلية، والروحية، والإبداعية، والاجتماعية إلى أقصى ما تستطيعه طاقات الفرد والجماعة، ويعني هذا بعبارة أخرى توفير السلع والخدمات اللازمة لنمو هذه الطاقات المتنوعة، وصياغتها واستمرار نموها وتطورها)[٤].

التطور التاريخي للتنمية البشرية:

إننا إذا ما نظرنا إلى موضوع (التنمية البشرية) من زاوية تاريخية، وجدناه ليس بذلك الموضوع الطارئ فلقد كانت وعلى امتداد الأفق الواسع للتاريخ مدار بحث، ودراسة، بيد أننا إذا ما أردنا أن نؤشر نقطة بداية وانعطافة تاريخية مهمة وحقيقية في مجال بحثنا هو ما جاء في القرآن الكريم من آيات كثيرة منها ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (لقمان/٢٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل -١٤)، والكثير من الشواهد الأخرى، يتضح من خلال الآيات القرآنية إن الإنسان خلق محتاجاً لغيره في ما يقوته ويمونه في حالاته وأطواره من نعومة أظفاره إلى أشد كبره، والحاجة لا تكون فقط لمن حوله بل تمتد إلى الخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق جميع ما في الكون للإنسان، فيده مبسوطة على العالم وما فيه بما جعل

الله له من الاستخلاف، أي إن الإنسان هو غاية جميع ما في الطبيعة وكل ما في الطبيعة مسخر له(٥).

عناصر التنمية البشرية:-

يمكن القول إن مفهوم التنمية البشرية يركز - بوجه عام - على ثلاث عناصر أساسية هي الصحة، والتعليم، والمستوى المعاشي والمتمثل بالعمل، ومقدار الدخل الناتج من ذلك، وهذا ما اقترحه برنامج الأمم المتحدة الإنمائي عام ١٩٩٠ لما لها من أهمية وعلاقة مباشرة بتطوير القدرات الإنسانية وبالتالي استخدام هذه القدرات أو استثمارها في رفاهية الإنسان وإسعاده وستناول كل عنصر من العناصر تبعاً لأهميتها بالنسبة للإنسان وعلاقتها بالتنمية، وبالعناصر الأخرى باعتبار إن عناصر التنمية البشرية هي عناصر متداخلة، ومترابطة، تتبادل التأثير على حد سواء.

١. الصحة:

تعد الصحة من أهم العناصر فاعلية في وجود الإنسان، وفي ديمومة بقائه، وهي تؤلف مع التعليم، والعمل مثلث عناصر التنمية البشرية الأساسية. ولأهمية عنصر الصحة للإنسان والمجتمع، فأن الإنفاق الحكومي على الصحة أصبح يعد استثمارا غير مباشر للطاقات البشرية أو القوى العاملة مستقبلاً. حتى إن شعار (الصحة للجميع) بات شعار ترفعه العديد من المؤتمرات الصحية العالمية، فالصحة حق أساسي من حقوق الإنسان كما إنها هدف اجتماعي عالمي(٦). والصحة (حالة تمتع الفرد بكامل عافيته البدنية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية)(٧) والصحة كهدف هي من الأشياء المتفق عليها في كل المجتمعات عبر التاريخ على المستويين الفردي والاجتماعي، أما الحالة المثالية في مجال إمكانية العطاء فتتمثل في تظافر صحة النفس، والجسد، مع نسق توجهات اجتماعية ايجابية، ومعارف متطورة وقدرات راقية(٨) لذلك فالصحة الجيدة أساس رفاهية البشر، وإنتاجهم، وان السياسة الصحية القائمة على قاعدة واسعة أمر أساسي للتنمية وتتصل المشاكل الدقيقة للصحة في العالم النامي بشكل وثيق بظروف البيئة ومشاكل التنمية(٩). وأننا إذا ما أردنا مثلا فحص العلاقة والاعتماد المتبادل فيما بين الصحة والتعليم، نجده يتضح من خلال ذلك المقدار من مقدرة الطفل على الاستيعاب الجيد للمقررات التعليمية في الدرس والذي يتوقف على

صحته ولياقته الجسمية، والعقلية، أو الذهنية، والتي تؤهله لاستخدام تلك المعارف والمهارات التي اكتسبها من خلال عملية التعليم في المدارس[١٠] فالتعليم يحتاج إلى صحة جسمية، ونفسية لكل من يتعامل معه وينهل من معارفه المختلفة حتى أصبح الربط بين التعليم، والصحة والعلاقة بينهما، من البديهيات التي لا خلاف عليها، بل أصبح مثلاً يضرب (العقل السليم في الجسم السليم) مما تقدم نرى بوضوح لا يقبل اللبس، إن الصحة ترتبط ارتباطا مباشراً بالعناصر التنموية الأخرى، ولما كان هدف التنمية في النهاية هو الإنسان فأن نتائجها ترجع لذات الإنسان نفسه.

٢. التعليم:-

يعرف التعليم بأنه (نقل المعرفة، والمهارات، والقيم من المعلم إلى المتعلم)[١١] ومن خلال التعريف يتضح إن هناك شروطاً أساسية يجب بتوفرها تسمى هذه العملية أو تلك (تعلم) إذ يشترط وجود المعلم ووجود المتعلم وهذا المعلم يقوم بنقل المعارف والمهارات والقيم إلى المتعلم، فالتعليم يعد من أبرز الوسائل لإعداد الطاقات البشرية وصقلها حتى أنك لتجد إجماعا فيما بين الباحثين (إن الحاجة إلى التعليم ضرورة من ضرورات البقاء، والنماء للإنسان في أي مجتمع من المجتمعات، وفي أي زمان، ومكان ومع تطور الحضارة الإنسانية وتعقيدها أصبح حق الإنسان في أن يتزود بقسط معلوم من التعليم المنظم والمنتظم، من الحقوق الأساسية التي نصت عليها المواثيق الدولية)[١٢] لقد استحوذ موضوع التعليم وعلاقته بالتنمية البشرية، أو دوره فيها حيزاً كبيراً من اهتمام، وفكر وكتابات الباحثين والعلماء سواء كان منهم التربوي أو الاجتماعي أو السياسي، لعلمهم إن التعليم هو الأداة التي تقوم على إعداد العنصر البشري، ورفع درجة كفاءته وإن ضرورة التعليم تكمن في قدرته على تنمية الشخصية الإنسانية ومساعدتها على تجسيد إرادتها، وحركتها، وإبداعاتها، وانتمائها الحضاري والقومي ومشاركتها في مسيرة تنمية مجتمعها.[١٣] وإذا أتينا على المحاور التي من خلالها تناولت التنمية البشرية التعليم، فأننا سنجد إن هناك ثلاثة محاور رئيسة اهتمت بها وهي:-

- توفير التعليم كأداة لاكتساب التقانة (التكنولوجية)
- ربط التعليم باحتياجات سوق العمل

• التعليم حق أساسي يهدف إلى تحسين وضع البشر وليس فقط تحضير البشر للعمل[١٤].

وان إمعان النظر في هذه المحاور الثلاثة والتي تناولت من خلالها التنمية البشرية التعليم نجد إن المحور الأول يؤكد إن (عملية الإنتاج، والإبداع، والتقدم في كل روافد العمل تستند إلى تطوير العنصر البشري علمياً، وفنياً، وتزويده بالأفكار والمعلومات الضرورية التي تنسجم مع التطورات المتسارعة في العلم المعاصر)،والمحور الثاني ينطلق من منطلق ان احتياجات سوق العمل من الاختصاصات والمهن المختلفة هي في تغير مستمر، وطلب يفترض المواكبة وبوضوح وعدم التأخير في رسم البرامج الجديدة، وهذا الأمر يجعل استجابة التربية والتعليم وروافدها لتلك الاحتياجات لا تقتصر على توفير قوة العمل فحسب بل تتجاوز ذلك إلى تطوير نظام التربية والتعليم وتحديده في المناهج والأساليب والبنى والمضامين، أما المحور الثالث فهو إنما يؤكد ان التعليم عنصر مهم في التمية البشرية يستهدف تغيير الأنماط السلوكية، والتصرف العقلاني بشؤون الحياة، وتطوير التفكير الخاص والعام للإنسان، وان هذا الرافد الحيوي لم يعد يتصل بمهمته في التعليم والتعلم في بديهياته فحسب وإنما أصبح ذا اتصال واسع بشبكة الاستثمار للرأسمال البشري والمادي، وتنمية المهارات البشرية سواء ما كان منها على صعيد سنوات الدراسة أم ما يليها من سنوات العمل والإنتاج[١٥].

وفي نهاية المطاف يتضح بوضوح لا يقبل الشك إن التعليم هو واحد من أهم عناصر التنمية البشرية

٣. العمل:-

إن العمل (من الناحية الفسيولوجية يعني صرف الطاقة في أثناء الفعالية الجسدية، ونفسياً هو إكمال المهمة)[١٦]. وإذا ما لأتينا نتصفح القاموس الاقتصادي وجدناه يعد العمل أحد عناصر الإنتاج، ولكنه يتميز بكونه العنصر الحاسم الذي من دونه لا تنهض أية عملية إنتاجية، وهو في هذا يختلف عن باقي عناصر الإنتاج مما يجعله المصدر الأساسي للقيمة في المجتمعات البشرية[١٧]. مضافا إلى كل ذلك فأن للعمل أبعاداً إنسانية، ومجتمعية تجعله من أهم العمليات الاجتماعية الإنسانية التي تطور المجتمع إنتاجا وفناً وثقافة فهو الشكل الجوهري للنشاط الإنساني والساحة المفتوحة لتحرير الإنسان وتنمية قدراته إذا لم تحدها

وتغلقها المحددات البنائية خصوصاً العلاقات الإنتاجية والانقسامية، والتمايزية، التي أنتجت تقسيما للعمل باعد بين العقل والفكر وفتت وحدة العمل الإنساني وشموله الاجتماعي[١٨]. والعمل عنصر مهم من عناصر التنمية البشرية، وعلاقته بالعناصر الأخرى التي ترتكز عليها التنمية وهي الصحة، والتعليم، فان هناك علاقة قوية ومتشابكة فيما بين مفردات هذا الثالوث حتى يمكن القول إن من الصعوبة بمكان الحصول عل أهداف إنتاجية جيدة إذا ما تعرض أي عنصر من هذه العناصر للضعف، أو أصابه الخلل، فإذا ما أتينا إلى العلاقة بين العمل والصحة وجدنا إن هناك علاقة طردية، إذ كلما تحسنت صحة الإنسان كلما زادت إنتاجيته، والعكس صحية والعمل كذلك له علاقة قوية بالتعليم إذ يعد الأخير عاملاً مهماً في التنمية الاقتصادية وإيجاد الثروة الطبيعية لكونه يكسب هذا الفرد الذي تعلم ودرس وعرف، وخبرات جديدة لم يكن يمتلكها قبل التعليم، كما أنه يصقل ويطور المواهب لدى الأفراد[١٩] ومن خلال هذا العرض يتجلى لنا ان للتعليم دوراً كبيراً ومؤثر في عنصر العمل وأن العامل الذي يمتاز بحصوله على قدر كبير من المعرفة يكون هو الأقدر على تحقيق أهداف العملية التنموية، وفي نهاية المطاف فالعمل يعد غاية ووسيلة في آن واحد فهو غاية ترتبط بإنسانية الإنسان في الجماعة وهو احد مكونات الكرامة الإنسانية التي يتشرف بها المرء خلال حياته، وهو وسيلة لأنه العنصر الحاسم في منظومة عوامل الإنتاج والقادر على الاستغلال الأفضل لبقية العوامل[٢٠].

قياس التنمية البشرية:-

كما هو معلوم انه كلما تعددت المتغيرات المقاسة والدالة على التنمية البشرية، كلما أدى ذلك إلى إعطاء صورة أكثر شمولاً وأدق قياساً للتنمية البشرية ولكوننا نجد إن اختيار المقاييس المستخدمة كثيراً ما تتحكم بها بعض الظروف، مثل عدم توافر البيانات أو الفقر في دقتها ومع كل ذلك فإننا نجد انه قد أصبح من المعتاد أن تقاس التنمية البشرية من خلال مؤشرات محددة، وهي العمر المتوقع عند الولادة، ومعدل القراءة والكتابة بين الكبار، ونصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي[٢١].

وإذا ما أتينا إلى العنصر الأول، وهو العمر المتوقع أو المرتقب عند الولادة أي العمر المتوقع الذي يعيشه هذا المولود الجديد، وهو عبارة عن متوسط عمر الإنسان في البلد المعني

وطول العمر يستخدم كدلالة على التغذية الكافية والصحة الجيدة ومدى توافر العناية والرعاية والخدمات الطبية للفرد في البلد المعني(٢٢).

أما العنصر الثاني وهو المعرفة فيقاس من خلال نسبة الملمين بالقراءة والكتابة وفي الحقيقة، إن هذه الأرقام الدالة على هذه النسبة ليست إلا انعكاساً عاماً لإمكانية الحصول على فرص التعليم لاسيما التعليم الجيد الذي يعد من الضرورات المهمة للحياة المنتجة خصوصاً في المجتمع الحديث، ومن المفيد أن نذكر إن تقرير التنمية البشرية يرى ان الإيمان بالقراءة والكتابة ليست إلا الخطوة الأولى في مجال التعليم واكتساب المعرفة إضافة إلى ذلك، فان الأرقام الدالة على نسبة الملمين بالقراءة والكتابة هو من المعايير الأساسية في قياس التنمية البشرية(٢٣).

والعنصر الثالث الذي يتعلق بنصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي أو مقدار الدخل القومي، وهذا العنصر له أهمية كبيرة لدى الباحثين إذ إن من غير الخافي ما يمكن يؤديه العامل الاقتصادي من دور فعال في عملية التنمية ن وان المعرفة الدقيقة لهذا العنصر يتطلب تعريف مفرداته حتى يتسنى لنا الفهم الجيد لهذا العنصر، ومدى إمكانية توظيفه من حيث كونه مؤشراً يعطي صورة ذات دلالة موضوعية عن خط سير عملية التنمية صعوداً او هبوطاً، حيث يعرف نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي (بأنه الناتج الإجمالي مقسوماً على عدد السكان ويعبر عن هذا النصيب عادة بالدولار حسب القيمة التجارية للدولار ومعدلات نمو نصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي هو متوسط معدلات النمو السنوي التي حسبت بقياس خطوط الاتجاه للقيم اللوغارتمية لنصيب الفرد من الناتج القومي الإجمالي بأسعار السوق لكل سنة من الفترة الزمنية(٢٤).

هدف التنمية البشرية:-

منذ ظهور مفهوم التنمية البشرية، وذلك في تقرير التنمية البشرية الأول الصادر عام ١٩٩٠ وما تلاه من تقارير، ومحور الكلام يصب في مصب واحد وهو كيفية الوصول بالإنسان إلى المكانة التي يستحقها على اعتبار ان الناس هم الثروة الحقيقية لأي أمة، وعند العودة إلى مفهوم التنمية البشرية فهي تعني توسيع نطاق الخيارات أمام الناس، وذلك بزيادة فرصهم في التعليم والرعاية الصحية، والدخل، والعمالة، وانطلقت إلى ابعد من

ذلك للتحرر من الأمية والجوع والتمتع بالحريات الشخصية، والأمان والاستقرار، وغيرها من الأمور التي تعود على الإنسان بالفائدة أولاً وأخيراً إذن أساس التنمية البشرية هو مبدأ عمومية مطالب الحياة إي الاعتراف بمطالب الحياة للجميع، نساءً ورجالاً، وأطفالاً دونما تميز[٢٥]. إي لا يحرم الإنسان من أي شيء يعود عليه بالفائدة فمنظور التنمية البشرية يقدر الحياة البشرية لذاتها، أي اعتبار الإنسان الهدف النهائي وغاية الغايات وذلك لأهميته ودوره في الحياة باعتباره أداة التنمية وغايتها في آن واحد بحيث لا يمكن أن تتحقق تنمية أو تقدم أو تطور في الحياة إلا عن طريق الإنسان وبواسطته[٢٦]. وانك إذا أتيت إلى العوامل الأخرى الضرورية للتنمية مثل رأس المال، والتنظيم، والإدارة، والتصميم، والتخطيط كلها في واقع الأمر قوامها الإنسان نفسه لكون الإنسان بما لديه من فكر وعقيدة وإيديولوجية وصحة ومهارات، وعلم هو العماد الحقيقي للتنمية ومحركها الأول والأخير[٢٧]. فالإنسان هو المحرك الذي يفكر، ويبدع، ويخترع، بعون الله وتوفيقه ويعطي الأشياء والسلع المصنعة قيمتها الحقيقية بما يضيفه من صنعة وعمل مبدع ودقيق وجيد وهو الذي يحول الثروة العلمية والتقنية، إلى ثروة إنسانية تخدمه وتخدم المجتمع الذي يعيش فيه وهو الذي يستطيع بذكائه وعلمه المبدع أن يسخر الموارد الطبيعية، والمادية على اختلاف أنواعها وأشكالها لخدمته وخدمة مجتمعه وأمته[٢٨]. ولهذا تبدع الدول المتقدمة في اجتذاب، واحتضان، وتشغيل طاقات الإنسان المبدع، وتقديم كل ما يلزم له، لتحقيق النهضة المدنية، والرخاء للجميع فهم يدركون إن الإنسان هو أساس التقدم، وهو يأتي قبل المال وقبل الخامات الأرضية، وقبل البنايات الشاهقة[٢٩].

المبحث الثاني

التنمية السياسية في فكر الامام الباقر عليه السلام

استثمر الإمام الباقر عليه السلام بعض ظروف الانفراج السياسي النسبي أيام إمامتهِ من أجل بناء القاعدة الشعبية وتوسيعها وتسليحها بالفكر السياسي المنسجم مع رؤية أهل البيت عليهم السلام وتعبئة الطاقات لاتخاذ الموقف المناسب، فكان له موقف المعارضة والمقاومة السياسية من الحكم الأموي، فبدأ تحركاً علوياً في عصره، فكان الوجه البارز له هو زيد بن علي بن الحسين أخو الإمام محمد الباقر عليه السلام واستشعر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بأن

مصدر الوعي السياسي هو الإمام الباقر فأودعه السجن، ولكن هذا لم يحد من نشاط الإمام السياسي فقد واصل دوره الجهادي والعلمي في التثقيف والتوعية والتنمية السياسية وهو في السجن، ولّما وصل الخبر إلى هشام بن عبد الملك، خاف من إحداث ضجةٍ داخل السجن، فأمر بإخراجه من السجن وإعادته إلى المدينة هو وأصحابه بوساطة البريد الرسمي للدولة[٣٠]، ولم يكن موقف الإمام من السلطة موقف المعارض الرافض رفضاً مطلقاً، فقد كان يُعبّر عن ثنائه لبعض الحكام الذين يطبّقون تعاليم الإسلام فقد سئل عن عمر بن عبد العزيز، فقال: هو نجيب بني أمية يبعث يوم القيامة أُمةً وحده[٣١].

وسياسةُ الإمام الباقر تبعثُ العدل الخالص، والحق المحض، ومثلتْ وجهة الإسلام الصحيحة وأهدافه الإنسانية في عالم السياسة والحكم والإدارة، وهي أرقى سياسة عرفها التاريخ وأجدرها بتحقيق العدل السياسي والعدل الاجتماعي بين الناس لأنها تنشد الاطمئنان الذي لا يشوبه القلق والأمن الذي لا يشوبه الخوف والعدل الذي لا يشوبه الظلم[٣٢].

ولعل أثر الإمام الباقر عليه السلام ودوره يتضح ويتجلى في القضية الاقتصادية التي هددت سياسة الدولة الأُموية وهو ما يُعبَر عنه بالاستقلال الاقتصادي إذ كان له دورٌ كبيرٌ في وضع أُسس الاستقلال الاقتصادي الإسلامي زمن دولة بني أمية بعد قرار ملك الروم آنذاك، مما شكل مشكلة حقيقية أمام المجتمع الإسلامي، بما فيهم دولة الأمويين، في استعمال الدينار الرومي الذي يسيء إليهم والى دينهم ضمن أوساطهم وبلدانهم، ولم يجدوا حلاً إلا عند الإمام الباقر، بعد أنْ رجع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى الإمام الباقر عليه السلام يسأله ويسترشده في ذلك، فأشار عليه الإمام بتأسيس مركز لضرب الدينار الإسلامي، ومنذ ذلك الوقت ضرب الدينار الإسلامي، وأصبح المجتمع الإسلامي متحررا من تبعية الدينار الرومي ومستقلاً في اقتصاده[٣٣]. وبذلك قد وضع الإمام الباقر عليه السلام أسس للتنمية السياسية الاقتصادية منذ أكثر من الف عام.

المبحث الثالث

التنمية الاجتماعية في فكر الإمام الباقر عليه السلام

تولّى الإمام الباقر عليه السلام مَهمات الإمامة بعد وفاة أبيه السجاد عليه السلام سنة خمس وتسعين

للهجرة وكان تولّيه ذاك إيذاناً بمباشرة مهماته التغيرية حيث كانت الأُمة تتطلع إليه بوصفه واحداً من أبناء أولئك الذين ضحوا بأرواحهم ودمائهم لكي يوقفوا موجة الانحراف التي كادتْ أنْ تطمس معالم الإسلام(٣٤).

وتمحورتْ جهوده حول بناء الكتلة المؤمنة وإعطاءها إطارها التفصيلي الخاص بها بوصفها كتلةً شاعرةً بكل حدود المفهوم الإسلامي وأبعاده المتبنى من قبل الأئمة عليهم السلام والمحافظة على الخط الحقيقي للإسلام وتحصين هذه الجماعة بأعلى درجات التحصين والوعي حتى تكون هذه الجماعة الرائد والقائد والحامي للوعي الإسلامي(٥٣).

ومارس الإمام سياسةً بنّاءةً تعملُ على إيجاد الوسائل السليمة لرُقيّ المجتمع وبلوغ أهدافه في الحياة الحُرَة الكريمة، سياسةً تسعى لتحقيق المساواة في ربوعه، والفرص المتكافئة بين أبنائه لوقايتهم من الظلم والحرمان(٣٦)، فقد اهتم بالمبدأ الإسلامي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطرائق عدة، منها بيان المكاسب الكثيرة التي تتحقق للفرد وللأمة بأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد قال عليه السلام: ((بها تتحقق المكاسب وتأمن المذاهب وتقام الفرائض وتُمنَع المظالم وتُعمَر الأرض ويُنصَف المظلوم من الظالم))(٣٧) وبذلك فقد وضع الإمام الباقر الأسس السليمة لبناء تنمية اجتماعية سبق علماء العصور التي تلته في ذلك.

ولم يأخذ الإمام الباقر هذا المبدأ على نحو التنظير، بل طبّقه في الحياة الاجتماعية العامة، فقد أثر عنه أنه سأل شخصاً عن سبب عدم زواجه، فيشتكي له قلة ذات اليد فيعطيه الإمام سبعة دنانير ليتزوج بها(٣٨).

وكان الإمام الباقر يحث على توقير أفراد المجتمع بعضهم بعضاً كي يتعمق الإخاء والود قال عليه السلام: ((عظّموا أصحابكم ووقروهم ولا يتجهّم بعضكم بعضاً، ولا تضّاروا ولا تحاسدوا، وإياكم والبخل، وكونوا عباد الله المخلصين)). وحثّ أيضاً على إشاعة الود والمحبة من خلال ممارسات متنوعة فقد قال ((تبسَم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرف القذى عنه حسنة، وما عُبِدَ الله بشيءٍ أحبُّ إلى الله من إدخال السرور على المؤمن)). وحثّ على تبادل الزيارات لأنها تؤدي إلى تجّذر روح الإخاء وزرع الود في القلوب والنفوس، ورغّب فيها ببيان آثارها الإيجابية على المتزاورين، حيث قال ((أيما مؤمنٍ خرج

إلى أخيه يزوره، عارفاً بحقه، كتب الله له بكل خطوةٍ حسنة ومُحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، وإذا طُرِق الباب فُتحت له أبواب السماء فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا، أقبل الله عليهما بوجهه، ثم باهى بهما الملائكة، فيقول: أنظروا إلى عبديَّ تزاورا وتحابا فيَّ، حق عليَّ أن لا أعذبهما بالنار بعد هذا الموقف، فإذا انصرف شيّعه الملائكة عدد نَفَسه وخُطاه وكلامه يحفظونه من بلاء الدنيا وبوائق الآخرة، إلى مثل تلك الليلة من قابل، فأنْ مات فيما بينهما أُعفي من الحساب وإنْ كان المزور يعرف من حق الزائر ما عرفه الزائر من حق المزور، كان له مثل أجره))[٣٩].

وقال عليه السلام: ((ودُّ المؤمنِ للمؤمن في الله من أعظم شُعَبِ الإيمان، ألا ومن أحبَّ في الله، وأبغض في الله وأعطى في الله، ومنع في الله فهو من أصفياء الله))[٤٠]. وقد وصلتْ حركة التدوين قمتها في عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام فقد ألَف أصحابها أربعمائة كتاب سميت بالأصول الأربعمائة تحوي على نصوص أحاديثهم عليهما السلام، أما كُتب أصحاب الأئمة جميعاً من جوامع للحديث أو تعليقات وشروح له فقد بلغت ستة آلاف وستمائة كتاب[٤١]. وبذلك وضع أسس سليمة وصحيحة لتنمية المجتمع تنمية علمية من خلال محاربة الجهل والظلام.

الخاتمة:

وفي نهاية بحثي يمكننا تلخيص التنمية السياسية والاجتماعية في فكر الإمام الباقر عليه السلام من خلال التنظيمات السياسية والاجتماعية التي اتبعها من خلال:

١. كان الإمام عليه السلام يمتلك القدرة على استنباط الأحكام الإسلامية من مصادرها الشرعية (القرآن - السنة) وهذه القدرة هي التي جعلته يمتلك معارف وعلوماً شتى مما جعل اجتهاده العلمي يؤهله ان يؤسس ويولد قواعد تنظيمية سياسية واجتماعية أدت إلى نهضة تنموية سياسية واقتصادية واجتماعية كبيرة.

٢. أتبع الامام الباقر عليه السلام قاعدة المساواة بين المسلمين كقرار تنظيمي لتحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإسلامي عموماً، دون تمييز أو إجحاف لحقوقهم السياسية والاقتصادية والسياسية.

٣. أن القواعد السياسية الاقتصادية والاجتماعية التنظيمية التنموية الممارسة من قبل

الإمام عليه السلام كانت تتخللها عملية اتصال وتفاعل بينه وبين الرعية، وذلك بغية معرفة مستحقات كل طرف وواجباته وبغية تحقيق موازنة اجتماعية بينهما.

٤. إن سياسةُ الإمام الباقر عليه السلام تبعثُ العدل الخالص، والحق المحض، ومثلتْ وجهة الإسلام الصحيحة وأهدافه الإنسانية في عالم السياسة والحكم والإدارة، وهي أرقى سياسة عرفها التاريخ وأجدرها بتحقيق العدل السياسي والعدل الاجتماعي بين الناس لأنها تنشد الاطمئنان الذي لا يشوبه القلق والأمن الذي لا يشوبه الخوف والعدل الذي لا يشوبه الظلم.

٥. وقد وصلتْ حركة التدوين قمتها في عهد الإمام الباقر عليه السلام من خلال تأليفه لمئات الكتب وتدريسه لمئات العلماء وبذلك وضع أسس سليمة وصحيحة لتنمية المجتمع تنمية علمية من خلال محاربة الجهل والظلام.

هوامش البحث

(١) تنمية القدرة الذاتية للوطن العربي، الياس زين:١٤٠
(٢) دراسات في التنمية الاجتماعية، حسن إبراهيم عيد:١٦٠
(٣) التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، جورج القصيفي: ٨١
(٤) التنمية البشرية في الوطن العربي، حامد عمار: ٤٣
(٥) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون:٢٤١
(٦) برنامج العمل العام الثامن، منظمة الصحة العالمية: ٢٥
(٧) مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي: ١٩
(٨) عن البشر والتنمية في الوطن العربي، نادر فرجاني: ٧
(٩) مستقبلنا المشترك، محمد كامل عارف، سلسلة عالم المعرفة: ١٦٨
(١٠) دراسات في علم الاجتماع الطبي، محمد علي محمد: ٣٠٨
(١١) مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي: ٤٢٢
(١٢) التنمية البشرية في الوطن العربي، حامد عمار: ١٤٣

(١٣) بعض المتغيرات المؤثرة في العلاقة بين التعليم والتنمية البشرية في الوطن العربي، عبد الباسط عبد المعطي: ٢٩٢.
(١٤) التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، جورج القصيفي: ٩٢
(١٥) اثر التعليم في التنمية البشرية سلمان زيدان:١٣٦
(١٦) معجم العلوم النفسية، فاخر عقل:٤٠٢
(١٧) التنمية البشرية وأنظمة التعليم والأنماط التقانية في الوطن العربي، دارم البصام:٢٦٤
(١٨) بعض المتغيرات المؤثرة في العلاقة بين التعليم والتنمية البشرية في الوطن العربي، عبد الباسط عبد المعطي: ٢٩٤
(١٩) دراسات في التنمية الاجتماعية، حسن إبراهيم عيد:١٠
(٢٠) التنمية البشرية في الوطن العربي، حامد عمار: ١٦٩
(٢١) مؤشرات التنمية البشرية العربية وتطوراتها، محي الدين خيري:١٠٨
(٢٢) التنمية المتواصلة والبيئة في الوطن العربي، محسن عبد الحميد توفيق وآخرون:١٧
(٢٣) تقرير التنمية البشرية عام ١٩٩٠، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي:٢٣
(٢٤) مؤشرات التنمية البشرية العربية وتطوراتها، محي الدين خيري:١٠٩
(٢٥) تقرير التنمية البشرية عام ١٩٩٨، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي:٢٠
(٢٦) قضايا الإنسان، عمر محمد التومي: ١٣٨
(٢٧) تنمية القدرة الذاتية للوطن العربي، الياس زين:١٤١
(٢٨) قضايا الإنسان، عمر محمد التومي: ١٣٨
(٢٩) ملامح التنمية الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين، خولة الدلاهمة:١٨
(٣٠) أهل البيت مقامهم، منهجهم، مسارهم، مؤسسة البلاغ: ١٣٨
(٣١) تاريخ الخلفاء، السيوطي:٢٣٠
(٣٢) معالم مشعة من حياة الامام الباقر عليه السلام، الحاج حسن:١٨٦
(٣٣) الاربع عشر، مناهج ورؤى، الحكيم: ١٥٧-١٥٨
(٣٤) سيرة الأئمة الاثني عشر، الاديب:١٥٥
(٣٥) أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف،الصدر:١١٥-١١٦
(٣٦) معالم مشعة من حياة الامام الباقر:١٨٦
(٣٧) دور الأئمة في الحياة الاسلامية، اليعقوبي: ١٦٧
(٣٨) دور الأئمة في الحياة الاسلامية: ١٢٩-١٣٠
(٣٩) اصول الكافي، الكليني:١٩٥-١٩٦
(٤٠) عناصر شخصية المسلم في آثار أهل البيت، اليعقوبي: ٥٧
(٤١) الامام محمد الباقر عليه السلام مجدد الحضارة الاسلامية، الصغير:٢٤٣

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦.
- الأديب، عادل: سيرة الائمة الإثني عشر (دراسة وتحليل)، الدار الإسلامية للطباعة والنشر، ب ت.
- بدوي، أحمد زكي، مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، لبنان ١٩٨٧.
- برنامج العمل العام الثامن، منظمة الصحة العالمية، سوسيرا ١٩٨٧.
- البصام، دارم، التنمية البشرية وأنظمة التعليم والأنماط التقانية في الوطن العربي، في كتاب التنمية البشرية في الوطن العربي.
- تقرير التنمية البشرية عام ١٩٩٠، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مطابع أكسفورد، نيويورك، ١٩٩٠.
- تقرير التنمية البشرية عام ١٩٩٨، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مطابع البحرين، البحرين، ١٩٩٨.
- توفيق، محسن عبد الحميد وآخرون، التنمية المتواصلة والبيئة في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٢
- التومي، عمر محمد، قضايا الإنسان، في كتاب الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادئ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٧.
- الحاج حسن، حسين إبراهيم: معالم مشعة من حياة الامام الباقر، دار ومكتبة الرسول الاكرم صلى الله عليه وآله، الطبعة الاولى،١٩٩٦م،بيروت – لبنان.
- الحكيم، محمد باقر: الاربع عشر، مناهج ورؤى، الناشر: انتشارات الامام الحسين، مطبعة بهمن، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ١٤٢٥هـ، النجف الاشرف.
- خيري، محي الدين، مؤشرات التنمية البشرية العربية وتطوراتها، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، الأردن، المجلد الثامن، العدد ٣، ١٩٩٣.
- الدلاهمة، خولة، ملامح التنمية الاقتصادية في القرن الحادي والعشرين، مجلة أخبار النفط والصناعة، العدد٣٥٥، السنة الحادية والثلاثون، ٢٠٠٠.
- زيدان، سلمان، اثر التعليم في التنمية البشرية، مجلة أم المعارك، بغداد، السنة الثانية، ١٩٩٧.
- زين، الياس، تنمية القدرة الذاتية للوطن العربي، مجلة قضايا عربية، بيروت، لبنان، العدد السادس، السنة العاشرة، ١٩٨٣.
- سلمان حنفي محمود، السلوك التنظيمي والأداء، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية، د. ت

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، دار العلوم الحديثة، بيروت، ١٩٥٢م.

- الصدر، محمد باقر: أهل البيت، تنوع أدوار ووحدة هدف، دار التعارف للمطبوعات،٢٠٠٥م، ١٤٢٦هـ، بيروت – لبنان.

- الصغير، محمد حسين علي: الإمام محمد الباقر عليه السلام مجدد الحضارة الإسلامية، مؤسسة التعارف للمطبوعات، الطبعة الأولى،٢٠٠٢ م، ١٤٢٤هـ، بيروت – لبنان.

- عارف، محمد كامل، مستقبلنا المشترك، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد١٤٢، ١٩٨٥.

- عبد المعطي، عبد الباسط، بعض المتغيرات المؤثرة في العلاقة بين التعليم والتنمية البشرية في الوطن العربي، في كتاب التنمية البشرية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٦.

- عقل، فاخر، معجم العلوم النفسية، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٨.

- علام اعتماد محمد، دراسات في علم الاجتماع التنظيمي، مكتبة الانجلو المصرية، ط١، ١٩٩٤.

- عمار، حامد، التنمية البشرية في الوطن العربي، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٢.

- عيد، حسن إبراهيم، دراسات في التنمية الاجتماعية، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٨٤.

- فرجاني، نادر، عن البشر والتنمية في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، بيروت، لبنان، العدد ١١٣، السنة ١١، ١٩٨٨.

- القصيفي، جورج، التنمية البشرية مراجعة نقدية للمفهوم والمضمون، في كتاب التنمية البشرية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.

- الكليني الرازي، محمد بن يعقوب: اصول الكافي، المجلد الاول، دار الاسوة للطباعة والنشر، ايران، الطبعة الرابعة، ١٤٢٤هـ.

- محمد، علي محمد، دراسات في علم الاجتماع الطبي، دار المعرفة الاجتماعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.

- مؤسسة البلاغ: أهل البيت، مقامهم، منهجهم، مسارهم، مؤسسة البلاغ للنشر، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٤م، ١٤٢٥هـ، ايران، قم.

- اليعقوبي، محمد: دور الأئمة في الحياة الإسلامية،شرح وتعليق السيد الشهيد محمد الصدر، الطبعة الأولى، دار أنوار الهدى للطباعة والنشر، ١٤٢٦هـ.

- اليعقوبي، محمد: عناصر شخصية المسلم في آثار أهل البيت عليهم السلام، مكتبة الشيخ اليعقوبي للنشر قم، ١٤٢٧هـ.